العرب
الإثنين 2019/11/18
السنة 42 العدد 11532

ثورة إيران... تتويج لفشل نظام

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

طبيعي أن ينتفض الشعب الإيراني على نظام في حال هروب إلى خارج حدود إيران منذ أربعين عاما. أكثر من طبيعي أن تشمل الثورة الشعبية كلّ إيران وذلك بعدما طفح كيل المواطنين العاديين من الدجل الذي يمارس في حقّهم والذي جعل نصف سكان البلد، أي نحو أربعين مليون شخص يعيشون تحت خط الفقر المتعارف عليه عالميا.

قد لا ينجح الشعب الإيراني هذه المرّة في التخلّص نهائيا من النظام. سينجح غدا أو بعد غد. ما لا بدّ من الاعتراف به أن النظام يمتلك آلة قمعية رهيبة. ظهر ذلك بوضوح في أثناء "الثورة الخضراء" في العام 2009 حين أُخمدت ثورة الشباب الإيراني بالدم والنار. لكنّ ما لا بدّ من الاعتراف به أيضا دخول إيران مرحلة لا عودة فيها إلى الخلف نظرا إلى أنّ النظام القائم ليس قابلا للحياة، مهما كانت القوة القمعية التي يمتلكها تمتلك من إمكانات. هذا يعود بكلّ بساطة إلى أن ليس في استطاعة النظام أن يكون نظاما طبيعيا يهتمّ بأمور شعبه بدل اعتماد الشعارات الكبيرة الطنانة. تبيّن مع مرور الوقت أنّ هذه الشعارات لا تسد جوع المواطن العادي ولا تجعله يأمل بمستقبل أفضل له ولأولاده.

ما تشهده إيران هذه الأيّام هو تتويج لفشل نظام ليس لديه ما يصدّره غير السلاح والبؤس والميليشيات والغرائز المذهبية، في حين يشكو الإيراني العادي من غياب لقمة العيش ومن صرف الأموال على "حزب الله" في لبنان أو "حماس" أو "الجهاد الإسلامي" في غزّة أو "أنصار الله" في اليمن. ما الذي يؤدي إليه الاستثمار في الميليشيات؟ هل الاستثمار في البؤس يمكن أن تكون له أي نتائج إيجابية على أيّ صعيد كان؟

سقط النظام الإيراني، أي نظام "الجمهورية الإسلامية" الذي أسّسه آية الله الخميني في العام 1979 بمجرّد أنّه صار أكثر اعتمادا على دخل النفط والغاز أكثر مما كانت عليه الحال في عهد الشاه. ذهب الشاه ضحيّة تردّده والمرض (السرطان) الذي عانى منه في السنوات الخمس الأخيرة من عهده. استطاع الخميني الذي كان يمتلك دهاء شديدا السيطرة على الثورة وتجييرها لمصلحة إقامة نظام على قياسه هو نظام الوليّ الفقيه.

في كلّ ما فعلته إيران في السنوات الأربعين الماضية، كانت هناك حلقة مخفية اسمها العلاقة مع أميركا. سمحت هذه العلاقة مع الولايات المتّحدة للنظام بالبقاء في السلطة بعدما وجدت الإدارات الأميركية المتلاحقة أنّ لديها مصلحة في بقائه. من إدارة جيمي كارتر التي تعمّدت تفادي المواجهة العسكرية، على الرغم من احتجاز الدبلوماسيين الأميركيين في طهران لمدة 444 يوما من دون وجه حق... إلى إدارة باراك أوباما التي عملت كلّ ما تستطيع من أجل تلبية مطالب النظام الإيراني والإفساح له في المجال من أجل التنفس ماليا، كانت لكلّ إدارة قصتها مع "الجمهورية الإسلامية". عقدت إدارة رونالد ريغان صفقة مع النظام الإيراني الذي لم يفرج عن رهائن السفارة إلّا بعد إجراء الانتخابات الرئاسية في خريف 1980. ضمن ذلك فوز ريغان على كارتر. تغاضى ريغان في تشرين الأوّل – أكتوبر 1983 عن نسف مقرّ المارينز قرب مطار بيروت في عملية تقف إيران وراءها. تجاهل سقوط ما يزيد على 250 عسكريا أميركيا قتلى. أكثر من ذلك، انسحب عسكريا من لبنان إرضاء لإيران.

صرفت إدارة جورج بوش الأب التي لم تستمر سوى أربع سنوات معظم جهدها على معالجة النتائج المترتبة على الاجتياح العراقي للكويت. وجدت إيران في أميركا حليفا غير مباشر لها في تلك المرحلة بعدما ارتكب صدّام حسين كلّ الأخطاء التي يستطيع حاكم للعراق ارتكابها بما يخدم النظام في إيران.

لم يكن بيل كلينتون مهتما بأيّ مواجهة مع إيران. خلق حال تعايش معها استفادت "الجمهورية الإسلامية" منها إلى أبعد حدود في انتظار تلك الفرصة التي لا تقدر بثمن التي أتاحتها لها إدارة جورج بوش الابن في العام 2003. في عهد بوش الابن، سلمت أميركا العراق على صحن من فضّة إلى إيران. كانت تلك الانطلاقة الثانية للمشروع التوسّعي الإيراني الذي بدأ يعاني حاليا من تصدير أزماته إلى الخارج، أي إلى لبنان وسوريا واليمن والبحرين والعراق تحديدا. ليس لدى هذا النظام ما يصدره سوى الأزمات. ما صدّره إلى العراق الذي كان ورقة أساسية لديه، ارتدّ على الداخل الايراني. رأى الإيرانيون كيف انتفض العراقيون على نظامهم الفاسد. لم يجدوا من خيار آخر غير الثورة على نظام الخميني والوليّ الفقيه علي خامنئي.

> **الإيرانيون بدأوا يتأثرون بشجاعة العراقيين الذين لا يقاومون نظاما فاسدا فحسب، بل يقاومون المستعمر الإيراني أيضا**

هناك فضل كبير في ما يجري في إيران للعراق ولإدارة دونالد ترامب التي أدركت أنّ المشكلة مع إيران ليست في الملفّ النووي. مزّقت إدارة ترامب الاتفاق في شأن الملفّ النووي الذي وقّع صيف العام 2015 عندما كان لا يزال باراك أوباما في البيت الأبيض.

الأهمّ من ذلك كلّه أن الإدارة الأميركية الحالية انضمّت إلى الدول العربية، على رأسها المملكة العربية السعودية ودولة الامارات العربية المتّحدة في اعتبار أن المشكلة مع إيران ليست في ملفّها النووي فقط. المشكلة في السلوك الإيراني خارج حدود إيران. هناك هوس إيراني في لعب دور إقليمي يحتاج إلى اقتصاد قوي ومتنوع قادر على الوقوف على رجليه قبل أيّ شيء آخر.

استطاعت إدارة ترامب إصابة إيران عند نقطة الضعف التي تعاني منها، أي الاقتصاد. بدأت إيران تشعر بمدى تأثير العقوبات الأميركية عليها. أمّا الإيرانيون أنفسهم فبدأوا يتأثرون بشجاعة العراقيين الذين لا يقاومون نظاما فاسدا فحسب، بل يقاومون المستعمر الإيراني أيضا.

في نهاية المطاف، ستتحرّر إيران عاجلا أم آجلا من نظام متخلّف يعيش من تصدير أزماته إلى خارج حدوده. ليست إيران وحدها التي ستتحرّر. سيتحرّر لبنان وسوريا والعراق. سيتحرّر اليمن، الذي لا يعاني من الحوثيين وتخلّفهم فحسب في صنعاء، بل من غياب "شرعية" تستطيع أن تكون صاحبة مشروع لليمن كلّه أيضا.

لا بدّ بالطبع من التعاطي مع الموضوع الإيراني بحذر. لكنّ ما يدعو إلى التفاؤل أن إيران كلّها ثائرة على النظام القائم بكلّ ما يمثله من ظلم وظلام وظلامية في وقت ليس ما يشير إلى أنّ وضعا غير طبيعي مثل وضع النظام الإيراني يمكن أن يستمرّ إلى النهاية... وفي وقت يبدو أن الإدارة الأميركية ليست على استعداد للتراجع عن العقوبات التي فرضتها على إيران. إنّها عقوبات بدأت مفاعيلها تظهر بوضوح مع ما يعنيه ذلك من تغييرات على مستوى المنطقة ككلّ...

قطار الثورة يصل إلى طهران

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

لم يتبلور حجم الغباء الذي حمله الخميني وخلفه لوريثه علي خامنئي وبقية مستشاريه المكابرين المغفلين كما ظهر أمس، وقبل أمس، في سلسلة الانتفاضات الشعبية الهاتفة بسقوطهم في مدن إيرانية مهمة وفي العراق ولبنان، وفي ما يأتي من كوارث مدمرة في قابل الأيام.

لقد كان المؤمل أن يفتح غياب الخميني صفحة إيرانية جديدة من الفهم الواقعي لتعقيدات المنطقة، وأن ينتهي مفعول إيران الثورة (الإسلامية)، وأن يُرسي قواعدَ تعامل جديدة بين إيران الدولة وبين جيرانها، أقل ما تتميز به هو طيُّ صفحة الحروب المذهبية، وتفويت الفرصة على القوى الحاقدة الخارجية والداخلية الراغبة في إشعال الفتنة إلى أطول أمدٍ مستطاع.

ويمكن القول بأن ذروة غباء نظام خامنئي تجلّت في الانغماس الكلي في المشروع الأميركي، الذي انتهى بغزو العراق ودخول إيران ودول المنطقة قاطبة في نفق الحروب الطائفية العبثية، التي لم تنتج سوى هذه الثورات الشعبية المتعاقبة التي لن تتوقف.

فسقوط نظام صدام، بكل جبروته وقوة آلته الحربية والمخابراتية، بسهولة ببضع دبابات أميركية غازية لم يكن ليتحقق لولا المعونة الإيرانية والسورية الأسدية والكردية الطالبانية والبارزانية، وهي الحقيقة التي لا ينكرها الإيرانيون والسوريون والكورد، أبدا، بل يباهون بها على الدوام.

وبإصرار النظام الإيراني على سياسة التحدي والتهديد والمشاكسة والمناكفة والابتزاز وتحريك الطوابير الخامسة، ومع اتساع تمدد حرسه الثوري وفيلق قدسه وباقي ميليشياته في سوريا ولبنان وفلسطين واليمن، وما استتبعه من اختلالات واحتلالات واغتيالات، جعل قطار الثورة الشعبية العراقية واللبنانية والإيرانية على موعد محدد ومقنن ومؤكد لاقتحام حصون ولاية الفقيه في عقر دارها، وإسقاطها في النهاية.

فلا شك في أن إيران دولة كبيرة وغنية بشعبها ومواردها وتاريخها الحضاري العريق. لكن تخيلوا حالها وحال شعبها وشعوب المنطقة، وربما العالم أيضا، لو كان النظام الحاكم فيها سويا مهذبا مسالما بَناءً يستثمر حيوية شعبه وطاقاته الإبداعية وثروات الدولة الإيرانية الطائلة، في إسعاد شعبه وإعمار مدنه وقراه وتحديثها وإغنائها، وفي ترسيخ الأمن والاستقرار والسلام في المنطقة، وفي نبذ الحروب والعنف والظلم والإرهاب، ولو نأى بنفسه وشعبه عن ثقافة العصور الجاهلية وعاداتها وطقوسها المتخلفة.

ثم دققوا معي في حجم إنفاق النظام الإيراني على إشعال الحرائق في العراق وسوريا ولبنان واليمن والسودان والبحرين وغيرها، وتدبير المؤامرات والدسائس والاحتراب، وتمويل وتسليح وتدريب المئات والآلاف من القتلة الإرهابيين، شيعة وسنة.

وابحثوا في آثار العقوبات الدولية على حركة الاقتصاد الإيراني، وانعكاساتها المدمرة على حياة الإيرانيين.

ثم فتّشوا، بعد ذلك، عن الضرورة الوطنية والقومية والدينية، التي حكمت على الولي الفقيه بأن يناطح العالم، ويدفعه دفعا إلى فرض تلك العقوبات، وإغراق الملايين الإيرانية بالتعاسة.

واحسبوا كم خسر المواطن الإيراني ممّا كان يكسبه في دول الخليج العربي والمنطقة والعالم، بسبب حكامه المشاكسين.

وبغض النظر عن أن زيادة أسعار الوقود هي التي أشعلت الثورة الإيرانية الشعبية الجديدة، فإن إيران بفعل سياسات النظام الغبية الفاشلة أصبحت، باعتراف المسؤولين الإيرانيين أنفسهم، أتعس بلاد الله الواسعة. وهذا كاف لإشعال ثوراتٍ عديدة لا ثورة واحدة تهدد وجوده وقد تعصف به في نهاية المطاف.

وهنا يكمن المأزق الخانق الشديد. ماذا سيفعل الحرس الثوري لمواجهة الجماهير الغاضبة؟

أمامه خياران لا ثالث لهما. فإما أن يلجأ إلى العنف المفرط وسفك الدماء فيصب زيوتا على نيران الانتفاضة، ويجعل إيران سوريا ثانية، أو أن يجنح إلى النفاق والاحتيال والوعود، التي جربها الإيرانيون وما عادوا يحترمونها ولا يثقون بقاطعيها. وفي الحالتين سيصل النظام، دون شك، إلى نهايته التي زرع بنفسه جذورها منذ أن وطئت قدم الخميني أرض مطار طهران قبل أربعين سنة.

ومن أكبر آيات عمى البصر والبصيرة أن المرشد الأعلى خطب عند قبر الخميني في الذكرى الخامسة والعشرين لوفاته، فأعلن أن إيران اليوم، رغم العقوبات المفروضة عليها، "تطلق الأقمار الصناعية، وترسل الكائنات الحية إلى الفضاء، وتنتج الطاقة النووية، وأنها باتت واحدة من الدول العشر الأوائل في الكثير من العلوم الحديثة".

> **قطار الثورة العراقية واللبنانية دخل إيران ولن يغادرها هذه المرة. فالشعب الإيراني تعلم من انتفاضاته السابقة كيف يقاتل وكيف ينتصر**

وهنا نتساءل، ما نفع هذه الأقمار الصناعية وإرسال الكائنات الحية إلى الفضاء، وإنتاج الطاقة النووية، إذا كانت الملايين من المواطنين تحت خط الفقر، ويأكل بعضها من فتات براميل النفايات؟

قطار الثورة الشعبية الجديدة العراقية واللبنانية دخل إيران أمس، ولن يغادرها هذه المرة. فالشعب الإيراني تعلم من انتفاضاته السابقة كيف ينتصر، وكيف يقاتل. وكل ظالم إلى جهنم وبئس المصير.